

أضواء على إسهامات العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس في النهضة الجزائرية الحديثة

بقلم الدكتور : أحمد مريوش

مدير مخبر التاريخ والجغرافيا المدرسة العليا للأساتذة* بوزريعة *

تمهيد:

لقد كتب العديد من المهتمين بالحركة الإصلاحية حول الشيخ بن باديس باعتباره من الرواد الفاعلين في الحقل الإصلاحي والباعث للنهضة الفكرية والثقافية في بداية جزائر القرن العشرين، وبرغم تلك الكتابات يبقى الرجل في أمس الحاجة إلى التذكير والاهتمام والبحث في فكره المتشبع بقضايا أساسية وجوهرية في كيفية الإعداد لإصلاح الجزائر، وسوف نستدل بجملة من النصوص المصدرة التي تركها حتى نستشف حقيقة الفكر الباديسي الذي لا يزال في أمس الحاجة إلى الدراسة والإثراء والتبليغ للآخرين للاستفادة منه والأخذ به في حركية التغيير التي يسعى إليها البعض اليوم، ولا تبقى ذكره مواسم فلكلورية مرتبطة بيوم العلم يستغلها بعض الانتهازيين للاقتيات على الموائد وبالمقابل يسعون لمخاربة المشروع الذي رسمه بن باديس لبناء الجزائر المعاصرة.

أولاً: أصول ومبادئ حركة بن باديس الإصلاحية: الإصلاح:

لقد ذكر بن باديس أصول ومرجعية دعوته الإصلاحية حتى لا تبقى مبهمة للغير وتلفق لها التهم الكاذبة من قبل الخصوم وتحديداً من الطرفين ورجال الدين الرسميين، وقد اعتمدتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في فلسفتها الإصلاحية، وحددها بن باديس في عشرين نقطة أساسية نلخصها في النقاط التالية:

- 1/ الإسلام هو دين الله الخالد الذي وضعه لهداية عباده وأرسل به جميع رسله.
- 2/ الإسلام هو دين البشرية الذي لا تسعد إلا به لأنه يدعو إلى الأخوة الإسلامية، ويسوي في الكرامة البشرية والحقوق الإنسانية، ويفرض العدل ولا يميز بين الأجناس إلا بالتقوى، ويحمل على

نشر الإحسان، ويحرم الظلم، ويمجد العقل ويشرك الفقراء مع الأغنياء في الأموال ويحرم الاستعباد و يجعل الحكم شورى .

3/ القرآن هو كتاب الإسلام.

4/ السنة القولية والفعلية الصحيحة هي تفسير وبيان للقرآن.

5/ سلوك السلف الصالح والتابعين هو تطبيق صحيح لهدى الإسلام.

6/ مفهوم أئمة السلف الصالح أصدق المفهوم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسنة.

7/ البدعة كل ما أحدث على انه عبادة وقرية ولم يثبت عن النبي(ص) فعله وكل بدعة ضلالة.

8/ المصلحة كل ما تقتضيه حاجة الناس في أمر دنياهم ونظام معيشتهم وضبط شؤونهم مما تقره أصول الشريعة.

9/ أفضل الخلق هو محمد (صلى الله عليه وسلم) واختاره الله لتبليغ الرسالة إلى كافة الناس وهو على أكمل الخلق، وعاش مجاهدا لإسعاد البشرية.

10/ أفضل المؤمنين هم الذين لآمنوا واتقوا الله.

11/ التوحيد أساس الدين وكل شرك باطل مردود على صاحبه.

12/ بناء القباب على القبور ووقد السرج والذبح عندها لأجلها والاستغاثة بأهلها ضلال من أعمال الجاهلية.

13/ ندعو إلى ما دعا إليه الإسلام وما بيناه من أحكام بالكتاب والسنة وهدى السلف الصالح.

14/ الجاهلون والمغرورون أحق الناس بالرحمة.

15/ عند المصلحة العامة من مصالح الأمة يجب تناسي كل خلاف يفرق الكلمة ويصدع الوحدة ويوجد للشر الثغرة، ويتحتم التأزر والتكاتف حتى تنفجر الأزمة وتزول الشدة⁽¹⁾.

ومما لا شك فيه أن بن باديس طبق في مسيرته الإصلاحية ما دعا إليه، وكان يرى دوما أن خدمة الجزائر مرتبط أساسا بخدمة العقيدة الإسلامية التي جاءت للبشرية جمعاء، ومن ثم كانت حركته الإصلاحية خدمة للجزائر بل وللإنسانية جمعاء، وإن الدارس لحياة الرجل يستوجب عليه الوقوف عند العقيدة والفكر والمنهجية التي أخذ بها هذا المصلح، وهي مستوحاة من الدين الإسلامي الحنيف والسلف الصالح، وقد أشار بن باديس في العديد من المواضع إلى ضرورة الاعتماد على هذه العقيدة في القول والعمل وكان يقول: بسم الله ثم باسم الحق والوطن نسعى لتحقيق الغايات، وكان المبدأ السياسي الذي يراه بن باديس هو خدمة الذات واستعادة المقومات الشخصية الوطنية التي أهدرتها فرنسا، وكانت عقيدة الدين الإسلامي هي الصفة التي صبغت الجزائريين ومكنتهم

من البقاء على ثقافة المقاومة، وهي الصفة الميزة التي كانت مرجعيته في حركة الدعوة والعمل، ومن ذلك قوله: نحن قوم مسلمون جزائريون نعمل على المحافظة على تقاليد ديننا التي تدعو إلى كل كمال إنساني، ونحرص على الأخوة والسلام بين شعوب البشر، وفي المحافظة على هذه التقاليد هي المحافظة على أهم مقومات قوميتنا وأعظم أسباب سعادتنا وهنائنا، وإن الدين قوة عظيمة لا يستهان بها، وأن الحكومة التي تتجاهل دين الشعب تسيء في سياسته وتجلب عليه ووعليها الأضرار...إننا نحب الإنسانية ونعتبرها كلا ونحب وطننا ونعتبره منها جزءا، ونحب من يحبه، نحب من يحبها ويخدمها ونبغض من يبغضها ويظلمها، وبالأحرى نحب من يحب وطننا ويخدمه، ونبغض من يبغضه ويظلمه، فلهذا نبذل غاية الجهد في خدمة وطننا الجزائري ونخلص لكل من يخلص إليه نناوئ كل من يناوؤه من بينه ومن غير بينه⁽²⁾.

وإذا كان الرجل قد أوضح المبدأ الذي سطره لفكره الإصلاحية فإن النهج التهذيبي كان واضحا في منهجيته، وكان بمثابة الطبيب الاجتماعي والحنك السياسي الذي يبحث عن الدواء الناجع للأمة الجزائرية في ظل تلك الظروف العسيرة من مراحل تاريخ الجزائر عشية نهاية الحرب العالمية الأولى، علما وأن الشباب الجزائري قد قدم لفرنسا ضريبة دموية في حروبها، وخدما بالنفس والنفيس وظل ينتظر البديل الذي سوف تقده فرنسا له تقديرا لجهوده في هذه الحرب، ولكنه يأس من سياسة التمني التي يرغب فيها البعض، وقد أشار بن باديس لذلك بقوله: إن الأمة الجزائرية قامت بواجبها نحو فرنسا في أيام عسرها و يسرها ومع الأسف لم نر الجزائر نالت ما يصلح أن يكون جزاءها فنحن ندعو فرنسا إلى ما تقتضيه مبادئها الثلاثة التاريخية (الحرية والمساواة والأخوة) من رفع مستوانا العلمي والأدبي بتعميم التعليم وتشريكنا تشريكا صحيحا سياسيا واقتصاديا في إدارة شؤون وطننا الجزائري⁽³⁾.

كانت مطالب بن باديس واضحة في وقت مبكر من عمر الحركة السياسية في الجزائر، وكان الفكر التربوي واضحا في نهجه الإصلاحية وقدم المطلب المعرفي والعلمي والروحي على المطالب الأخرى التي كانت مدرجة في مطالبه منها الاقتصادية والسياسية وإن الجزائري يكون شريكا بالضرورة في التسيير، مع العلم أن أسلوب المرحلية كان واضحا وبارزا في مسار منهجيته الإصلاحية، وقد أولى من العناية الكافية للتربية الروحية والمعنوية الضرورية لبناء النفوس وترقية الأجيال، كما جعل من العلم الصحيح الزاد النافع في بناء التراكم المعرفي للأمة الجزائرية التي تعاني من الضيم والجهل، وقال أن محاربة الرذيلة والآفة هي أكثر من ضرورة لتطهير النفوس وخدمة مستقبل الشعوب، وتحريم ما حرمه الشرع الإسلامي، وفي ذلك يقول: كما تحتاج الأبدان إلى غذاء

من المطعوم والمشروب كذلك يحتاج العقل إلى غذاء من الأدب الراقي والعلم الصحيح، ولا يستقيم سلوك أمة وتنقطع الرذيلة من طبقاتها وتنشر الفضيلة بينها إلا إذا تغذت عقول أبنائها بهذا الغذاء النفيس، فنحن ننشر المقالات العلمية والأدبية وكل ما يغذي العقل من منظور ومنثور من صحف الشرق والغرب وأفلام كتاب الوطن، ونقاوم كل معوج من الأخلاق وفاسد من العادات، ونحارب على الخصوص البدع التي أدخلت على الدين الذي هو قوام الإخلاص فأفسدته وعاد وابل ذلك الفساد علينا وتأخرنا من حيث يكون تقدمنا...⁽⁴⁾.

ثانيا: الفكر التربوي عند بن باديس:

لقد استمد بن باديس فلسفته التربوية من خصوصيات المجتمع الجزائري بشكل خاص، ومن الفكر الإسلامي بشكل عام، وقد عكست تجربته التربوية استيعابا دقيقا لوضعية الجزائر المحتلة، وقد انطلق العمل التربوي لتأمين الأرضية الخصبة للمواجهة المطلوبة التي أفرزتها الحقبة الاستعمارية والمتمثلة في المؤامرة ضد الهوية الوطنية المكونة من الفرنسة والاندماج والميز العرقي، وأن التصدي لإحباط تلك المؤامرة يكون عبر وسيلة التربية والتعليم وغرس العقيدة في عقلية المجتمع، وجعل بن باديس من التربية الدينية والخلقية وتحفيظ القرآن الوسائل البديلة لجمع شمل الجزائريين وتوحيد الصفوف، وقد أشار إلى ذلك بقوله: " فإن القرآن الذي كون رجال السلف لا يكثر عليه أن يكون رجالا في الخلف، لو أحسن فهمه وتديره، وحملت الأنفس على منهاجه"⁽⁵⁾.

والظاهر أن الفكر الباديسي كان مستمدا أيضا من الواقعية وعلى القاعدة الشعبية التي كان يعتمد عليها في حركته، وقد راهن على هذه الكتلة الاجتماعية العريضة التي هي في أمس الحاجة إلى التغيير والإصلاح لما تعاني منه من ضيم استعماري، ولم يخاطب الحركة الأفقية صاحبة الإماتات إلا في الحالات النادرة، وقد أشار إلى ذلك بقوله: إننا نريد نهضة شعبية قوية تجلي شخصية الشعب الجزائري، وتكشف مجد الماضي بما ينير له طريق الحياة من جديد، لا أقولا مكررة عن سياسة انتحائية يديرها الاستعمار.... نريد انقلابا جزائريا يتركز على إعداد نشء صالح، تتمثل فيه عنصرية الجدد، فينهض نهضة إسلامية عربية تأخذ من عظمة الماضي ويقظة الحاضر ما يعصهما من الزلل والانحراف، وهي في طريق المستقبل الباسم.⁽⁶⁾

وكانت مهمة التعليم والتربية عند بن باديس مهمة آنية تثقيفية تهيئية توعوية، ومهمة بعيدة سياسية، وهي متلازمة مع المهمات الأخرى الثقافية والاجتماعية، وان فلعدة توسيع المقروئية بين

الشباب ونثر وسائل التعليم سوف تكون ثقافة جديدة رافضة للواقع الجزائري المرير، وبالمقابل تأسيس اطر فاعلة وظيفية ضد مدرسة التغريب الفرنسية، ومن ثم كان نداء بن باديس في البصائر في ديسمبر 1936 يعد مرحلة هامة في تحديد المفاهيم التربوية وبناء الأطر الناجعة لحركته العلمية مشيرا إلى ذلك بقوله: أيها الشعب المسلم الجزائري الكريم تالله لن تكون مسلما إلا إذا حافظت على الإسلام، ولن تحافظ عليه إلا إذا فقهته، إلا إذا كان فيك من يفقهك فيه... أما أبناءك الشبان حملة القرآن فقد هبوا هبة رجل واحد لطلب العلم والتفقه في الدين يحملون الإيمان في قلوبهم، والقرآن في صدورهم، والروح الجزائرية المسلمة في لحومهم ودمائهم.⁽⁷⁾

وكانت فلسفة التربية عند بن باديس تهدف إلى تثقيف الذات، وإن صلاح المجتمع يكون بصلاح الفرد، وصلاح الفرد يكون بتطهيره مما تسرب إلى نفسه وروحه من ثقافة المحتل الغاصب، ويهدف بن باديس إلى هدم التحصين القديم المبني على الإستراتيجية الفرنسية وتحديد بما هو أصح للأمة الجزائرية لتأمين قوة الصمود والتصدي ضد الآخر ولن يكون ذلك إلا بقوة التحصيل العلمي والديني والاجتماعي، وتكوين نخبا وطنية تفكر بالفكر الجزائري لا بالفكر الفرنسي، وقد أشار إلى ذلك بقوله: " نعرف كثيرا من أبنائنا الذين تعلموا في غير أحضاننا ينكرون وربما عن غير سوء قصد تاريخنا ومقوماتنا ويودون لو خلعنا ذلك كله واندمجنا في غيرنا، وكنا نرد عليهم في كل مناسبة تبدو منهم فيها مثل هذه البوادر السامة الخاطئة..."⁽⁸⁾

وكانت سياسته التربوية تستهدف تأهيل الجزائريين وتنمية قدراتهم العقلية والاجتماعية والخلقية وحتى الاقتصادية والسياسية من اجل البحث عن حياة أفضل، وفق استرجاع المقومات والدفاع عن الشخصية الجزائرية بكل مقوماتها، وبالمقابل يراهن بن باديس على تحقيق المنظومة الجديدة التي سوف تؤول إلى تحقيق الأهداف السياسية التي يتولاها جيل قادر على المساهمة والتحدي وهو مفعم بالحصانة الكافية.

ثالثا: مفهوم المقاومة عند بن باديس:

من دون شك أن دعوة بن باديس قد خاطبت العقل، وحثت على اليقظة الفكرية من اجل النهوض بالمجتمع الجزائري وبناء الذات التي سلبت منها كل مقوماتها الفكرية والدينية والتاريخية وركز في منهجه الصحيح على حركية التغيير التي قوامها العقل وتقوية الروح، وأن صلاح الفرد سوف يخدم بالضرورة صلاح المجتمع، وإن حركة التغيير تنطلق من الجزء إلى الكل، والاهتمام بالفرد

الجزائري أولا ثم الإمعان الجيد في التحضير لمقاومة الطرف الآخر وهو المحتل الفرنسي، كما ربط بن باديس توعية الفرد وتلقيه جملة من القيم والمفاهيم الدينية والوطنية بخدمة الأوطان وكان يقول دوماً: الحق فوق كل احد والوطن قبل كل شيء، كانت دعوته تناهض المفسدين والمستبدين من الناس لنصرة الضعيف والمظلوم والاستماع إلى شكواه، وكان يقول إننا ننظر إلى الناس على حسب أعمالهم لا إلى أقدارهم، وبذلك نسلك الصدق والإخلاص والنزاهة والنظافة في القول والفعل، وننشر كل انتقاد يكون على هذه الصفات علينا أو على غيرنا وأن مبدأ الإنصاف يوصل للفهم والحقائق تكون إلا به، ونحن بين الجميع لا نخدم إلا الحق والوطن والدين. وكان بن باديس دوماً يؤسس لفكره السياسي منطلقاً من المرجعيات الأساسية الخامة لتصوره الذي مر بمراحل التعايش فالقطيعة، وقد ركز في ذلك على محاور هامة منها:

- 1/ الحق في الحرية وهي عقيدة وطنية أعتمدها بن باديس في مشروعه الإصلاحية
- 2/ قيمة الرجل بقيمة قومه وأن احترامه لمقومات الأمة من جنسها ولغتها ودينها وتاريخها لا ينظر إليه بعين الاحتقار، باعتباره جزء من تلك الأمة الواحدة.⁽⁹⁾
- 3/ الواقعية السياسية التي أعتمدها بن باديس أشبه ما تكون بشعرة معاوية، وكانت علاقاته مع القوى الوطنية معتدلة بحكم الظرف الزمني للتطور التاريخي سواء الوطني منه أو الدولي، ولو أنه كشف لاحقاً عن الواقعية السياسية التي سوف تصطدم لا محالة مع فرنسا ودعاة الجزائر الفرنسية، ونراه يرد على هذه الجماعة بقوله: إن هذه الأمة الإسلامية الجزائرية ليست فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ولا تريد أن تصبح فرنسا ولا تستطيع أن تصبح فرنسا ولو أرادت، لكنها امة بعيدة كل البعد عن لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها، لا تريد أن تندمج، ولها وطن محدد معين من قبل الدولة الفرنسية⁽¹⁰⁾.
- 4/ الصلابة في الرأي وتحديد الموقف وصياغة الأحكام القاطعة، وقد حدثني عن ذلك الشيخ احمد حماني رحمه الله حول مواقف بن باديس خصوصاً عشية الحرب العالمية الثانية حينما كانت الإدارة الفرنسية تسعى لكسب المزيد من التأييد والمساندة معها في الحرب فكان رد الرجل صريحاً وقاطعاً بقوله أمام زملائه: " لو طلبت مني فرنسا أن أقول لا اله إلا الله ما قلتها "⁽¹¹⁾.
- 5/ الشعب الجزائري لن يموت وهي فلسفة هذا المصلح المتشعبة بروح التحدي المستوحى من تاريخ الشعب الجزائري الذي عرف عبر الزمن كيف يواجه الخطوب والمحن، وقد ركز بن باديس على تلك المرجعية المكونة من الدين والأرض والتاريخ في تقريره الأدبي الذي قدمه إلى جمعية التربية والتعليم الإسلامية يذكرها من خلاله ومن ذلك قوله: لقد أعطانا الله من هذا الدين الإنساني من هذا

الدين العقلي الروحي ما يكمل عقولنا ويهذب أرواحنا، أعطانا منه ما لم يعطه لغيرنا لنكون قادة وسادة، وأعطانا وطننا شاسعا واسعا مثل ما لغيرنا فنحن إذا شعب ماجد عظيم يعتز بدينه، يعتز بقوميته، يستطيع أن يكون في الرقي واحد من هذه الشعوب، ولنا من تاريخه الحافل ما يجعلنا نؤمن بصدق. إننا شعب خالد ككثير من الشعوب وان الذي يعلم تاريخ الجزائر الحديث يجزم بأن هذا الشعب شعب حي لا يموت.⁽¹²⁾

6/ ثقافة البقاء وقوة الوحدة وهي من أفكار بن باديس وهو في قمة شعبيته بعد فشل مطالب المؤتمر الإسلامي 1936 وبرز التطور في مواقفه تجاه شركائه في الطيف السياسي وبالأخص النواب الذين ظلوا مغرمين بالحضارة الفرنسية وولائهم لها بل يرون أن تحقيق مطالبهم تبقى في إطار الأبوة الفرنسية، وقد خاطب بن باديس الأمة الجزائرية على ضرورة التحول إلى البحث عن البدائل لتحقيق مطالبها بقوله: برهنوا للعالم على أنكم تستحقون الحياة بعد تماطل النواب مع سياسة الماضي الغير مجدية والتي لم تقدم البدائل للجزائريين، وحينها قال: حرام على عزتنا القومية وشرفنا الإسلامي أن نبقي نترامى على أبواب برلمان أمة ترى أكثريتها ذلك كثيرا عنا. ويسمعنا كثير منها في شخصيتنا الإسلامية ما يمس كرامتنا ويجرح أعز شيء لدينا⁽¹³⁾.

رابعا: مشروع المجتمع الجزائري في فكر بن باديس:

لقد ساهم بن باديس في رصد جملة من المعالم الواضحة في تصوره لبناء المجتمع الجزائري المنححر من رواسب الاستعمار الفرنسي، وكان المجتمع الذي يراهن عليه هذا الرجل مجتمعا يربط بين الأصالة والمعاصرة بحسب ما ذكره بقلمه في أصول ومرجعية حركته النهضة التي بدأها منذ عودته من الحجاز، وقد تجسد ذلك في مساره الدعوي الذي قارب بين الفكر السلفي الصحيح ودعاة الحداثة التي عاشها في عصره، وقد رفع بن باديس شعار ثلاثي بسيط في مظهره وعميق في مضمونه وهو (الجزائر وطني والعربية لغتي والإسلام ديني) وحاول أن يحقق ذلك على الواقع الجزائري من خلال معالجة الميادين التالية:

1/ الوحدة الوطنية التي كانت واضحة في سياسة بن باديس فالبرغم من أن حركته كانت إسلامية تتخطى الحدود الإقليمية لخدمة الجامعة الإسلامية، إلا أن ثقافة الوطن كانت بارزة المعالم في تفكيره وفي تصوراتهِ وخصوصا بعد بروز الفكر القومي وظهور النهضة العربية، بل حدد بن باديس طبيعة الواجب الوطني المقدس الذي يخدمه وكتب مقالا بعنوان: "لن أعيش" أوضح من خلاله انه يعيش

للإسلام والجزائر مشيرا إلى ذلك بقوله: أما الجزائر فهي وطني الخاص الذي تربطني بأهله روابط من الماضي والحاضر والمستقبل بوجه خاص، وتفرض علي تلك الروابط لأجله فروضا خاصة وأنا أشعر بأن كل مقوماتي الشخصية مستمدة منه مباشرة وكما إنني كلما أردت أن اعمل عملا وجدتي في حاجة إليه إلى رجاله وإلى ماله وإلى الأمة، كذلك أجدي إذا عملت قد خدمت بعلمي ناحية أو أكثر مما كنت في حاجة إليه هكذا هذا الاتصال المباشر أجده بيني وبين وطني الخاص في كل حال وفي جميع الأعمال، وأحسب أن كل ابن وطن يعمل لوطنه لا بد أن يجد نفسه مع وطنه الخاص في مثل هذه المباشرة وهذا الاتصال نحن لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطانا أخرى عزيزة علينا هي دائما منا على بال ونحن نعمل لوطننا الخاص نعتقد انه لا بد وأن نكون قد خدمناها وأوصلنا إليها النفع والخير من طريق خدمتنا لوطننا الخاص.⁽¹⁴⁾

2/ الهوية الوطنية التي جعل منها بن باديس المقوم الأساسي في الحفاظ على مقومات الشخصية الوطنية والمتمثلة في اللغة العربية والقرآن الكريم والموروث الثقافي والاجتماعي، وإن الحصانة الحقيقية للأمة الجزائرية ومدى قوتها تكمن في قوة وبقاء هويتها وفي الحفاظ عليها وقد ربط بن باديس بين عنصري اللغة العربية والدين الإسلامي وأن العربية هي المفتاح الكفيل بفهم الإسلام ولم تكن العربية بالنسبة إليه مستمدة من العنصر العرقي وأشار إلى ذلك بقوله: ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان فمن تكلم بالعربية فهو عربي.⁽¹⁵⁾

وقد عالج بن باديس منذ وقت مبكر مشكل الهوية الجزائرية وتطرح إلى القضية الأمازيغية ولم تكن وقتها من الملفات المحظورة وقد ألقى العديد من الدعاة محاضرات في نادي الترقى بالأمازيغية، وكان بن باديس يرى ضرورة التعايش الثقافي بين الجزائريين وكان رده صريحا بعد الكلمة التي ألقاها الشيخ يحي حمودي بالقبائلية في نادي الترقى وكان يهدف إلى بروز التنوع الثقافي تحت لواء الإسلام ومن ذلك قوله: إن أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرنا، ثم أبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء وتؤلف بينهم في العسر واليسر وتوحدتهم في السراء والضراء حتى كونت منهم في أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا، أمه الجزائر وأبوه الإسلام، وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات إتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دماء في ميادين الشرف لإعادة كلمة الله، وما أسالوا من محابر في مجالس الدرس لخدمة العلم، فأى قوة بعد هذا يقول عاقل تستطيع أن تفرقهم⁽¹⁶⁾.

كما اعتبر بن باديس عنصر التاريخ من هوية الأمة الجزائرية، وإن الأمة الجزائرية موجودة على غرار الأمم الأخرى مبرزا ذلك بقوله: إن الأمة الجزائرية المسلمة موجودة مثلها في ذلك مثل بقية

الأمم، وإن لهذه الأمة تاريخها المجيد ولها وحدتها الدينية واللغوية، ولها ثقافتها وعاداتها وطبائعها⁽¹⁷⁾ ويتابع بن باديس في مناسبات أخرى طرحه لتوظيف التاريخ في البنية الوطنية واستعادة مقومات الأمة بقوله: إننا شعب خالد ككثير من الشعوب، وإنما علينا أن نعرف تاريخنا ومن عرف تاريخه جدير بأن يتخذ لنفسه منزلة لائقة به في هذا الوجود، ولا رابطة تربط ماضينا المجيد يحاضرنا الأغر والمستقبل السعيد إلا هذا الحبل المتين: اللغة العربية لغة الدين لغة الجنس لغة القومية لغة الوطنية المغروسة⁽¹⁸⁾

3/ التكفل بقضايا المرأة التي اعتبرها بن باديس نصف المجتمع وقد افرد لها ركنا خاصا منذ شهر مارس 1929 في مجلة الشهاب كرسه للحديث عن المرأة العربية في صدر الإسلام ودورها في نشر الدين الإسلامي الحنيف، وكان يهدف من وراء ذلك إلى اطلاع جمهور القراء على معرفة هذه التراجم الجديرة بالاعتناء لبعض الرجال والنساء من السلف الصالح وما لهم من صفات اكتسبوها عن طريق الإسلام وما كان منهم من أعمال في سبيل الله، ففي ذلك ما يثبت القلوب ويعين على التهذيب، ويبعث على القدوة، وينفخ روح الحياة⁽¹⁹⁾.

وقد أورد بن باديس نماذج حية لدور المرأة العربية في قضايا المجتمع المسلم ودعا إلى ضرورة توظيف هذا التراث لخدمة وتوسيع المقروئية في الوسط الجزائري وكيف ساهمت تلك النماذج من النساء المحصنات بالقيم الدينية في خدمة المجتمع من أمثال السيدة أم حرام بنت ملحان خالة أنس بنت مالك وزوجة عبادة بن الصامت التي كان النبي (ص) يكرمها ويزورها في بيتها وقد طلبت من الرسول أن يدعو لها أن تكون من الغزاة في البحر فكان لها ذلك حينما خرج زوجها في إمارة معاوية وخلافة عثمان لغزو جزيرة قبرص واستشهدت هناك ودفنت بالجزيرة، كما أشار بن باديس إلى عينة أخرى وهي الربيع بنت معوذ التي كانت في خدمة الجيش وفي غزوات الرسول (ص) وهي تسقي الماء وتداوي الجرحى وتجمع المرض⁽²⁰⁾.

وكتب بن باديس عن الشاعرة العربية الخنساء التي ضحت بأبنائها الأربعة من أجل نصرة الإسلام والمسلمين، ومن دون شك أن بن باديس كان يريد بالمرأة الجزائرية أن تكون محاربة وطبيبة وممرضة ومربية وشجاعة، وان تستوحي تكوينها من ما أقدمت عليه النساء المسلمات اللواتي قدمن ما فيه الكفاية لخدمة المسلمين والإسلام، وكانت دعوة بن باديس صريحة لتعليم المرأة وكانت العديد من الطالبات مسجلن في مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة، كما تذكر بذلك بعض الروايات وأن بن باديس راسل سنة 1938 مديرة إحدى الثانويات بدمشق وكانت وقتها من أحفاد الأمير عبد القادر يطلب منها أن تستقبل في مؤسستها عددا من الطالبات الجزائريات لكن اندلاع الحرب الثانية ووفاة بن باديس جمد المشروع⁽²¹⁾ كما قال بن باديس قولته المشهورة عن المرأة:

"الجاهلة التي تلد أبناء للأمة يعرفونها مثل أمهاتنا خير من العالمة التي تلد للجزائر أبناء لا يعرفونها".
ويقصد هنا بدور المرأة التربوي والتوعوي في المساهمة في تكوين الناشئة تكويناً صالحاً.

4/ المصير المشترك مع الذات ومع الآخر وهي رؤية قوية في منهجية التواصل لدى بن باديس وفي مسيرته الإصلاحية، وكان الواجب الوطني من أولى أولوياته ودعا إلى ضرورة التقارب في العمل وعبر عن ذلك ميدانياً وكانت له لقاءات كثيرة مع فعاليات سياسية جزائرية وأجنبية، وكانت له أيضاً مواقف حول قضايا جوهرية ومطالب سياسية قدمتها تيارات الحركة الوطنية ومنها مشاركته القوية في المؤتمر الإسلامي الجزائري، وبرغم ذلك وجه الكثير من المرات نداءات وتحذيرات للأمة الجزائرية أن لا تتبع سياسة المماثلة والضجر التي أوصل إليها الشعب الجزائري عشية الحرب الثانية ومن ذلك قوله: حذار من الذين يمنونك ويخدعونك، حذار من الذين يأتونك بوعي من غير نفسك وضميرك، ومن غير تاريخك وقوميتك، ومن غير دينك وملتك وإبطال دينك وملتك (22).

وإذا كانت رؤية بن باديس للمصير المشترك بين الجزائريين بارزة في طرحه الوطني، فإن اهتماماته بالبعد العربي والإسلامي وقضايا المغرب العربي لم تكن غائبة عن فكره وساند القضية الفلسطينية وكتب عنها ووقف عند شرعية الشعب الفلسطيني في أحقية بالأرض والبقاء، كما اعتبر منطقة المغرب العربي هي امتداد طبيعي وتاريخي ومصيري للجزائر والمشرق الإسلامي وأشار إلى ذلك بقوله: وأقرب هذه الأوطان إلينا هو المغرب الأدنى والمغرب الأقصى اللذان هما والمغرب الأوسط إلا وطن واحد لغة وعقيدة وآداب وأخلاقاً وتاريخاً ومصالحة، ثم الوطن العربي والإسلامي ثم وطن الإنسانية العام، ولا نستطيع أن نؤدي خدمة مثمرة لشيء من هذه كلها إلا إذا خدمنا الجزائر (23).

خامساً: وصايا بن باديس بين القول والتطبيق:

لا أبالغ إذا أجزمت على أننا حتى الساعة لم نتمكن بعد من معرفة إلا النزر القليل جداً مما كان يهدف إليه هذا المصلح ومن نظراته المستقبلية لخدمة الجزائر والإنسانية جمعاء، إذ كانت دعوته صريحة في التخطيط لانتشال الأمة الجزائرية من الوضعية المزرية التي آلت إليها من جراء معاول الهدم الاستعمارية التي فرضت عليها، ولذلك ركز منذ بداية دعوته الإصلاحية على إعطاء جملة من النصائح للجزائريين وهي وصايا متعددة الأهداف لخدمة وترقية الأمة الجزائرية وهي صالحة عبر الزمان والمكان، وأشار إليها في جريدة الشهاب قبيل تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومن

تلك الوصايا قوله: هاك آدابا تقتضيها إنسانيتك ويفرضها عليك دينك وتستدعيها مصلحتك في هذه الحياة وهناك ما إن تمسكت به كنت إنسان المدنية ورجل السياسة وسيدا حقيقيا يرمق كمن كل أحد بعين الاحترام والتعظيم وهي:

1/ حافظ على صحتك فهي أساس سعادتك وشرط قيامك بالأعمال النافعة لنفسك ولغيرك، تجنب الغفوية فإنها مصدر جراثيم الأمراض ومثار نفور وبغض لطلعتك، ومجلبة سب لجنسك ولدينك الشريف

2/ نظف بدنك ووبك، تبعث الخفة والنشاط في نفسك، وتنبل في عين غيرك وتجلبه إلى الاستئناس بمعاشرتك.

3/ قه أهلك وولدك ومن إلى رعايتك مما تقوي منه نفسك وسيهرمهم على نظام صحي وقانون أدبي تكفل سعادة وهناء عائلتك ورخاء عيشك وهدوء بالك.

4/ حافظ على عقلك فهو النور الإلهي الذي منحتك لتتهدي به إلى طريق السعادة في حياتك.
5/ فاحذر كل متعلم يزهلك في علم من العلوم، فإن العلوم كلها أثمرتها العقول لخدمة الإنسانية ودعا إليها القرآن بالآيات الصريحة، وخدم علماء الإسلام بالتحسين والاستنباط ما عرف في عهد مدنيهم الشرقية والغربية حتى أعترف بأستاذيتهم علماء أوروبا اليوم.

6/ أحذر كل متريبط يريد أن يقف بينك وبين ربك ويسيطر على عقلك وقلبك وجسمك ومالك بقوة، يزعم التصرف بما في الكون، فربك يقول لك إذا سألت فإني قريب.

7/ أحذر من دجال يتاجر بالرقى والطلاسم، ويتخذ آيات القرآن وأسماء الرحمن هزوا يستعملونها في التمويه والتضليل.

8/ حافظ على مالك فهو قوام أعمالك، فاسلك كل سبيل مشروع لتحصيله وتنميته، واطرق كل باب خيري لبذله.

9/ أحذر المضاربات الربوية في معاملاتك ومن مسارب السرف في جميع ملذاتك، ودع ما إذا كانت من المحرمات.

10/ حافظ على حياتك، ولا حياة لك إلا بحياة قومك ووطنك ودينك ولغتك وجميل عاداتك، وإذا أردت الحياة لهذا كله، فكن ابن وقتك تسير مع العصر الذي أنت فيه بما يناسبه من أسباب الحياة وطرق المعاشرة والتعامل.

11/ كن عصريا في فكرك وفي عملك وفي تجارك وفي صناعتك وفي فلاحتك وفي تمدنك ورقيك، كن صادقا في معاملاتك بقولك وفعلك.

12/ أخطر من الخيانة، الخيانة المادية في النفوس والأعراض والأموال، والخيانة الأدبية ببيع الذمة والشرف والضمير.

13/ أخطر من التوحش فإن المتوحش في عصر المدنية محكوم عليه طبيعيا بالتناقض ثم الفناء والاضمحلال والاندثار، كما فنيت جميع الأمم المتباعدة عن التمدن والرقى.

14/ أخطر من التعصب الجنسي الممقوت فإنه أكبر علامة من علامات الحمجية والانحطاط، كن أبا إنسانيا لكل جنس من أجناس البشر وخصوصا ابن جلدتك.⁽²⁴⁾

هذه وصايا تركها الشيخ منذ بداية نشاطه الإصلاحية تكون بمثابة الدستور الحقيقي الجامع للجزائريين، وهي جامعة وشاملة في مضمونها مست قضايا الفرد الجزائري من ناحية الدين والأخلاق والاجتماع والسياسة والاقتصاد والحث على ضرورة الابتعاد على التعصب الجنسي الذي يشتت الأمم، وكأن الرجل يتكهن بما سوف يصيب الجزائر لاحقا.

الخلاصة:

هذه عينات من القليل للكثير عن مسيرة رائد النهضة الجزائرية بن باديس وعن مشروعه الإصلاحية في وقت كانت فيه الجزائر شبه مدمجة مع فرنسا ماديا ولغويا وروحيا، لكن دعوته للنهضة أيقظت الضمائر وأحيت الهمم، وبرزت الجزائر من جديد لغة وتاريخا ووطنا، وكانت دعوته الإصلاحية نفخا جديدا في نفوس الجزائريين المقهورين الذين كانوا خدما لفرنسا، حارب الرجل أعدائه بالكلمة والقلم وبناء الناشئة وتكوين مضامين جديدة رافضة للاحتلال، عجل بالتعليم والتربية ونشر الفضيلة والقيم وتصدى للبدعة والتحجر ودعاة الضلالة، دعا إلى الربط بين الأصالة والقبول بالحدثة، وتكوين مجتمع جزائري يضمن مسيرة البقاء وفق التحول المستجد، عمل بالفكر الوسطي في الدعوة، غازل الإدارة الفرنسية ودعاة التفرنس في بداية مشواره وعبر عن انتفاضته ضدهم قبيل وفاته، اعتبره البعض مهندس الجمعية ومن مكوني التوازنات في الحركة السياسية، كان يفكر بجدية في أن الوصول إلى الطريق المسدود بين الجزائر وفرنسا سوف يكون لا محالة مخاطبا الأمة الجزائرية بقوله: وأعلم أن عملي هذا على جلالته ما هو إلا خطوة ووثبة ووراء خطوات ووثبات، وبعدها إما الحياة وإما الممات. وجاء اليوم الموعد وتحققت مقولة بن باديس واندلعت الثورة في غرة نوفمبر وفضل الشعب الجزائري الموت عن الحياة ونال استقلاله.

الإحالات المعتمدة في الدراسة:

- ¹ - جريدة البصائر، العدد 71، الموافق ل 18/جوان/1937.
- ² - جريدة المنتقد / العدد 1، الموافق ل 1925/07/2
- ³ - محمد الميلي، بن باديس وعروبة الجزائر، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1980، ص160.
- ⁴ - مطبوعات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، آثار الإمام عبد الحميد بن باديس، ج1، 2005، ص175.
- ⁵ - الدكتور رايح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1984، ص183.
- ⁶ - الدكتور علي الشامي، التغريب الثقافي والتربية الإسلامية في الجزائر، أضواء على آراء الشيخ عبد الحميد بن باديس، مجلة الإنماء العربي للعلوم الإنسانية، العدد 21، جويلية 1981، ص184.
- ⁷ - جريدة البصائر، العدد 47، الموافق ل 11 ديسمبر 1936. وكذلك: الدكتور أحمد مريوش، مساهمة الحركة الإصلاحية في بناء المجتمع الجزائري المعاصر 1952/1900، مجلة الحكمة، العدد 1، الموافق ل افريل 2009، ص 103.
- ⁸ - الشامي، المرجع السابق، ص 187.
- ⁹ - مجلة الشهاب، الجزء 8، المجلد 11، الموافق ل نوفمبر 1935.
- ¹⁰ - مجلة الشهاب، ج1، م12، افريل 1936، وكذلك: احمد حماني، صراع بين السنة و البدعة أو القصة الكاملة للسطو بالإمام الرئيس عبد الحميد بن باديس، ج2، مطبعة البعث قسنطينة 1984، ص 244.
- ¹¹ - مقابلة خاصة مع الشيخ أحمد حماني رحمه الله، بتاريخ 1984/01/11 بمقر المجلس الإسلامي الأعلى بالجزائر العاصمة.
- ¹² - جريد البصائر العدد 171، الموافق ل 22 جوان 1939.
- ¹³ - يذكر الشيخ حماني أن إصلاح بن باديس ترك مشئلة جزائرية هامة من الشباب الذي لى نداء الواجب المقدس خلال الثورة للمزيد أنظر: احمد حماني، الإمام عبد الحميد بن باديس وجهاد التحرير المبارك، مجلة إذاعة القرآن، العدد 5 الموافق ل ديسمبر 2007، ص31، وكذلك: مجلة الشهاب، ج7، م13، الموافق ل سبتمبر 1937.
- ¹⁴ - الدكتور احمد مريوش، دراسة النزعة العقلانية والوطنية في منظومة بن باديس الإصلاحية، مجلة المصادر العدد 7، نوفمبر 2002، ص102.
- ¹⁵ - الميلي، بن باديس، ص 51.
- ¹⁶ - مريوش، دور جمعية لعلماء المسلمين الجزائريين في الحركة الوطنية الجزائرية ما بين 1952/1931، مجلة الرؤية، العدد2، جوان 1996، ص124.
- ¹⁷ - الدكتور جلال يحيي، المغرب العربي الكبير، الفترة المعاصرة، ج4، دار النهضة العربية 1981، ص218.
- ¹⁸ - جريدة البصائر ، العدد171، الموافق ل 22 جوان 1939 .
- ¹⁹ - عبد الحميد بن باديس، رجال الإسلام ونساؤه ، مجلة الشهاب، ج1، م10، جانفي 1934.
- ²⁰ - عبد الكريم بوصفصاف، حركة محمد عبده وعبد الحميد بن باديس وأبعادها الثقافية والاجتماعية والسياسية 1940/1849، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2008، ص 504.
- ²¹ - مقابلة خاصة مع الشيخ حمزة بوكوشة بتاريخ 1985/06/8 بمنزله بالجزائر العاصمة.
- ²² - مجلة الشهاب ، ج6، م13، الموافق ل أوت 1937.
- ²³ - مجلة الشهاب، ج10، م12، جانفي 1937.
- ²⁴ - جريدة الشهاب، العدد 49، الموافق ل أوت 1926.